الفصل الخامس

محاولات الخروج من دائرة النظام

(النظريات التوفيقية)

مقـــــدمة :

بدأ بعض علماء الاجتماع يدرسون الصراع بعد أن أدركوا مدى ارتباط نظريات هذا العلم بدراسة الاستقرار والنظام ، وبعد أن لاحظوا أيضا أن اهمال هذا العلم لدراسة الصراع كان نقطة الضعف الأساسية التى تركز حولها نقد الاطر التصورية التقليدية . لقد حاولوا أن يخرجوا علم الاجتماع من دائرة النظـــام . ونحن نطلق عليهـــا « محاولات » لأن هؤلاء العلماء لم يستطيعوا بالفعل أن يقننوا دراسة الصراع بطريقة تبعد عنهم شبهة التحيز الأيديولوجى . على العكس من ذلك تماما درسوا الصراع من وجهة نظر وظيفية بحتة . وأستطيع أن أفسر نشأة هذه الحـــركة من خلال العاملين التاليين :

١ ــ محاولة التبرير على أن علم الاجتماع ــ الامريكى خاصة ــ بأطره الحالية ــ يستطيع أن يطور نفســـــه ليدرس الصراع والتغير ، أى أنه يستطيع أن يخرج من دائرة النظام وأن يتحرر من ربقة الأيديولوجية .

٢ ــ أمام الانتشار الواسع النطاق للماركسية ــ خاصة بين الشباب ــ بدأ علماء الاجتمـــاع الغربيون يهتمون أو يشيرون الى دراسة الصراع ليثبتوا أن نسقهم النظرى يستطيع أن يستوعب الفكرة الأساسية فى الماركسية

واعنى دراسة الصراع . وربما كان هذا هو السبب الذى جعل اغلب رواد هذه المدرسة الفكرية يحاولون الربط بين البنائية الوظيفية وبين الماركسية فى نسق نظرى واحد ، الامر الذى جعل الكثيرين من مؤرخى النظـــرية السوسيولوجية يسم هذا التجاه بالاتجاه التوفيقى . ولقد آثرت ابتـــاء هذا المصطلح الأخير مع التسليم بأن هذا الاتجاه لم يكن توفيقيا بقدر ما كان محاولة لمعالجة الصراع بطريقة مغايرة للماركسية(١) .

ولكن مهما يكن من أمر هذه الجماعة فاننى اعتبر بعض آراء افرادها اتجاهات نقدية مبكرة فى علم الاجتماع وان كانت قد انتهت الى نفس الخط ونفس التيار الذى يسير فيه هذا العلم . ولقد بدأ الاهتمام بدراسة الصراع فى فترة مبـــكرة على يد علماء نظرية النسق انفسهم وعلى رأسهم تالكوت بارسونز فى مقـــاله الشهير « الطبقة والصراع الطبقى فى ضوء النظرية السوسيولوجية الحديثة » (٢) . غير أن هذه المحاولة ــ كما رأينا ــ لا يمكن ان تخرج عن نظرية التوازن أو تحيد عن فكرة النسق المستمر ، فلا يزال النظام هو نقطة الانطلاق الرئيسية ، ثم تطورت محاولة بارســـــونز الى محاولات أخرى قام معظمها على نقد كل من الوظيفية والماركسية لافراط كل نظرية منهما فى التركيز على بعد واحد من أبعاد الحياة الاجتماعية واهمال البعد الآخر . بعض هذه المحاولات يرتبط بالوظيفية مهما اتسع حديثها عن

---

(١) فلو كانوا قد أخذوا الصراع بنفس الطريقة التى أخذه بها ماركس وربطوه بالوظيفية لكان اتجاههم توفيقيا بحق ولكن معالجتهم للصراع توحى بأنهم يريدون أن يقولوا : « اننا نستطيع أن ندرس الصراع ولكن بطريقة تغاير طريقة ماركس » .

(٢) T. Parsons, «Social Class and Class Conflict in the light of Recent Sociological Theory» in T. Parsons, **Essays in Sociological Theory,** The Free Press, Glencoe Collier-Macmillan Limited, London, Paperback Edition, 1964

الصراع مثل محاولة لويس كوزر وفان دن برج ، وبعضها الآخر يعد نقدا أصيلا للماركسية والوظيفية على حد سواء مثل محاولة رالف دارندوف وهذه المحاولة هى التى اعتبرها اتجاها نقديا حقيقيا ومبكرا فى علم الاجتمـــــاع الغربى . ولكن جميعها تعد محاولات للخروج من دائرة النظام وعلى أى حال فقد أثرت هذه المحاولات على البحوث الأمبيريقية فوسعت من دائرة اهتمامها لتدرس الاتساق والصراع فى المجتمع بدلا من التركيز على الاتساق أو النظام وحده ، وربما يكون هذا هو الاسهام الوحيد الذى قدمه هذا الاتجاه .

وسيحاول هذا الفصل تقييم هذا الاتجاه داخل علم الاجتماع ، ومعالجتى له هنا تنبع من ثلاثة اعتبارات توضح اهمية هذا الاتجاه :

أولا : أن هذا الاتجاه قد سلك طريقا مغايرا الى حد ما للطريق الذى سلكه أصحاب نظرية النسق . حقيقة أن بعض المحاولات ترتبط بنظـــرية النسق ولكن معالجتها للصراع فى مؤلفات أو مقـــالات كاملة ، ودخولها فى حوار نقدى مع أصحاب نظرية النسق أنفسهم قد أكسب اتجاههم طابعا خاصا .

ثانيا : أن هذا الاتجاه قد ارتبط بفترة تاريخية معينة امتدت من منتصف الخمسينيات وحتى قرب نهاية الستينيات . وربما اعتقد أصحابه أن اتجاههم هذا سوف يخرج علم الاجتماع المرتبط بنظرية النسق من المأزق النظـــرى الذى وقع فيه من فرط اهتمامه بالنظام العام . غير أنه اتضح بعد ذلك أن النقد يتزايد وان هذا الاتجاه لم يحقق الغرض الذى قام من أجله .

ثالثا : أن هذا الاتجاه قد ترك تأثيرا لايمكن انكاره على البحـــــوث الأمبيريقية بصفة خاصة . فعلى اثره ظهرت الكثير من البحوث التى لا تلتزم بدراسة الاستقرار فقط وانما تولى الصراع اهمية بنفس القـــدر . وبدأنا نسمع عن ذلك النوع من البحوث الذى يدرس النظام Order والصراع Conflict أو الاتســـــاق Cohesion والانقســـــام division داخـــــل

المصنع او داخل القرية . بل ان هذا الاتجاه قد لاقى قبولا لدى بعض الدوائر السوسيولوجية فى خارج الغرب منها الهند ومصر على سبيل المثال . وسوف نضرب أمثلة على نماذج من هذه البحوث فى نهاية هذا الفصل .

هذا وتنقسم معالجة هذا الفصل الى العناصر التالية :

١ — لويس كوزر ووظائف الصراع .

٢ — ديفيد لوكود ونقد نظرية النسق .

٣ — رالف دارندوف والحتمية السياسية .

٤ — الصراع فى بعض البحوث الأمبيريقية .

ولا شك أن هناك علماء آخرين ينتمون الى هذا الاتجاه ولكن آراءهم كانت امتدادا لبعض آراء ديفيد لوكود أورولف دارندورف من هؤلاء العلماء بيرسى كوهين الذى نقد نظرية لوكود وقدم بديلا لها ، ومنهم أيضا فان دن برج الذى نقد نظرية دارندورف وقدم بديلا لها . ولذلك آثرت أن اناقش آراء كل من هذين العالمين مع آراء العالم الذى نقده فعالجت آراء كوهين مع آراء لوكود وآراء فان دن برج مع آراء دارندورف .

اولا : لويس كوزر ووظائف الصراع :

فى عام ١٩٥٦ نشر كوزر Lewis Coser دراسته بعنوان « وظائف الصراع الاجتماعى » The Functions of Social Conflict ولقد اعـــاد لويس كوزر بكتابه هذا الاهتمام بنظرية جورج زيمل على مايذهب تيماشيف(٢) . فالمعروف أن زيمل (١٨٥٧ — ١٩١٨) قد اهتم بوظائف الصراع سواء أكانت وظائف ايجابية ام وظائف سلبية .لقد ميز زيمل بين قوتين أو عمليتين من عمليات التفاعل الاجتماعى : المنافسة والصراع ، والمنافسة تعد ضربا من الصراع غير المباشر ووظائفها ايجابية باستمرار . أما الصراع فيكون مباشرا يتحكم

---

(٢) تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، **مرجع سابق** ، ص ١٥١ .

فى اهدافهاحد طرفى الصراع وقد تكون وظائفه سلبية او ايجابية او كليهما معا (٤) . ويبدو ان كوزر لم يتأثر بزيمل وحده وانما تأثر ايضا بآراء جورج سمبسون الذى نشر دراسة عن « الصراع والمجتمع المحلى » عام ١٩٣٧ حاول فيها الربط بين افكار زيمل عن الصراع وافكار دوركايم عن التكامل الاجتماعى . لقد اهتم سمبسون بالطابع التكاملى للصراع ، وما يسهم به من وظائف فى التنظيم الاجتماعى ، وقسمه الى صراع مشترك وهو الصراع الموجه الى خارج الجماعة ، وصراع غير مشترك وهو الذى يحدث بين مكونات المجتمع نفسه . وكل فرع يسهم فى النهاية فى تحقيق التكامل الاجتماعى بين أجزاء المجتمع المحلى (٥) .

ولقد تأثر كوزر بزيمل وسمبسون بطبيعة الحال ، كما تأثر بالوظيفية وحاول مثله مثل سمبسون تماما ان يربط فكرة الصراع بفكرة التكامل ، والتوازن . عرف كوزر الصراع بأنه عملية اجتماعية ضرورية لفهم العلاقات الاجتماعية واعتبره نضالا وكفاحا حول القيم والمكانات ومصادر القوة.ويكشف هذا التعريف للصراع عن تأثره بزيمل الذى اعتبر الصراع عملية اجتماعية من عمليات التفاعل الاجتماعى (٦) . لكن دراسة كوزر مواجهة اساسا لدراسة وظائف الصراع الاجتماعى وكيف يسهم فى تحقيق التكامل . وهنا يظهر تأثره بالفكر الوظيفى . يقول كوزر « يساهم الصراع داخل الجماعة فى اقامة الوحدة والاتساق Cohesion عندما تكون الجماعة مهددة بالمشاعر العدائية والمتعارضة بين اعضائها . وتتوقف فائدة الصراع فى تحقيق التكيف الداخلى على نمط المسائل المتصارع عليها ونمط البناء

---

(٤) عبد الباسط عبد المعطى ، **فى نظرية علم الاجتماع** ، القاهرة ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٣ ، ص ١٤٤.

(٥) **المرجع السابق** ، ص ١٦٤ — ١٦٧ .

(٦) **المرجع السابق** ، ص ١٦٩ .

الاجتماعى الذى يظهر داخله الصراع » (٧) .

وحول هذا النص تتركز كل افكار كوزر ، فالصراع مهما تعددت أنماطه وقنواته يسهم فى النهاية فى تحقيق الوحدة والاتساق بين أفراد المجتمع . وهو خادم أمين للبناء الاجتماعى حيث يؤدى باستمرار الى اعادة تكييف المعايير وبناء القوة داخل الجماعات مع حاجة الأفراد والجماعات المكونة له . وقد ميز كوزر بين نوعين من الصراع : صراع داخلى وآخر خارجى وكلاهما مرتبط بالبناء الاجتماعى . والصراع الداخلى قد يكون صراعا مرتبطا بالأهداف والقيم والمصالح الرئيسية للجماعة ، وهذا هو الذى يؤدى الى التكامل . ومن الناحية الأخرى قد يقوم على قيم متنافسة متنافرة حيث لايتفق طرفا الصراع على مجموعة من القيم تقوم عليها شرعية النسق . فى هذه الحالة قد يؤدى الصراع الى تهديد البناء الاجتماعى وانهياره اذا لم يستطع البناء أن يتحمل هذا الصراع ويشكله داخل نظمه (٨) . فدرجة الانتظام المعيارى normative regulation للصراع داخل النسق هى الأساس الذى ميز به كوزر انواع الصراع الداخلى(٩) . فاذا انتظم الصراع فى معايير كان صراعا وظيفيا يؤدى الى التكامل ، والعكس اذا لم تستطع المعايير ان تتشرب ما يفرزه المجتمع من صراع . أما الصراع الخارجى فيتصل بصراع الجماعة مع الجماعات الخارجية . مثل هذا الصراع يزيد من التماسك الداخلى لكل جماعة . فهو يحرك كل قوى وطاقات أعضائها نحو مواجهة الجماعة الخارجية . فى هذه الحالة تقل الصراعات الداخلية الى أقصى درجة ، وهى

---

(٧) Lewis Coser, **The Functions of Social Conflict**, the Free Press Glencoe, Ill, Copyright, 1956. p. 151

(٨) Ibid., p. 151

(٩) عبد الباسط عبد المعطى ، فى نظرية علم الاجتماع ، **مرجع سابق** ، ص ١٦٩ .

ان ظهرت تؤدى الى انهيار الجماعة من خلال الانقسام أو الهزيمة أو الانشقاق(١٠) .

وتختلف الأبنية الاجتماعية فى درجة تحملها للصراع أو درجة تشكله النظامى ، وبصفة عامة فى الطريقة التى تسمح من خلالها بالتعبير عن المشاعر العدائية التى تنشأ من التنافس على المصادر النادرة ، والهيبة الاجتماعية ، ومراكز القوة . فالجماعات المترابطة والتى يوجد داخلها درجة عالية من التفاعل والاندماج الشخصى فى البناء الاجتماعى تميل الى أن تكبت الصراع ، الأمر الذى يؤدى الى تراكمه ، ولذلك فانه عندما يظهر يكون صراعا عنيفا ، هذا البناء المترابط يختلف عن بناء الجماعة الانقسامية . ان مثل هذه الجماعة يتسع بناؤها لصراعات متعددة . فطاقات اعضاء الجماعة تتحرك فى اتجاهات عديدة ، ومن ثم لا تتجمع فى خط صراعى واحد ينفذ خلال بناء الجماعة نفسها . وبالمثل يمكن أن نقارن بين بناء الجماعة التى تنخرط فى صراع خارجى ، وتلك التى لاتخبر مثل هذا الصراع ، الأولى تكبت الصراعات الداخلية التى لو ظهرت لحطمت الجماعة أمام قوة الصراعات الخارجية ، والثانية تكشف عن مرونة فى بنائها الاجتماعى تسمح بأنواع متعددة من الصراع تساهم فى تحقيق التوازن والاستقرار (١١) .

ويركز كوزر على جوانب الصراع التى تحقق الاستقرار والتكامل . فالمجتمعات المتصارعة التى تعتمد كل جماعة منها على الأخرى الى جانب الخطوط الصراعية المتقاطعة تربط أجزاء النسق الاجتماعى بعضها ببعض . فالصراع الذى تمارسه المجتمعات ــ خاصة المجتمعات المفتوحة البناء ــ يخفف ــ أولا ــ حدة التوتر بين الأطراف المتصارعة ويعمل باستمرار على تقليل أسباب التفكك واعادة الوحدة والترابط ، ويساعد ــ ثانيا ــ على اعادة المعايير القائمة أو على ظهور معايير جديدة . فهو بهذه الطريقة يعد ميكانيزما

---

(١٠) L. Coser, op. cit., p. 1153

(١١) Ibid., pp. 152—153

لتكييف مجموعة من المعايير تتلاءم مع الظروف الجديدة التى يخلقها . ويعمل ـــ ثالثا ـــ على تأكيد قوة المصالح المتعارضة داخل البناء ، وهو بهذه الطريقة يخلق توازنا مستمرا فى بناء القوة . ويؤدى ـــ رابعا ـــ الى تقليل العزلة الاجتماعية بين الجماعات والأحزاب ، وهو بذلك يؤدى الى ترابطها بصرف النظر عن كونها تحمل مشاعر عدائية . واذا كان الصراع بهذه الطريقة يقرب بين الجماعات فان استمراره يعمل ـــ خامسا ـــ على المحافظة على الحدود الفاصلة بين هذه الجماعات . فالصراع بهذه الطريقة يحدد مركزا لكل جماعة فرعية داخل النسق وحدود العلاقات بين هذه الجماعات (١٢) .

يتضح من آراء كوزر فى الصراع أنه حاول أن يحقق درجة من التقارب بين دراسة الصراع ودراسة النظام . فآراؤه توحى بوجود علاقة متبادلة بينهمـــا . فالنظام يؤدى الى الصراع : المجتمع المنظم الذى يكبت الصراع ينفجر فيه الصراع بعنف . وفى نفس الوقت فان الصراع يؤدى الى التوازن . ولكن ذلك الأخير لا يظهر الا فى نمط معين من انماط البناء الاجتماعى مثلمـــا يظهر الأول فى نمط مختلف . ولا استطيع ان اجارى القول بأن محاولة كوزر هذه محاولة توفيقية بين نظريات الصراع ونظريات التوازن لأنها لاتعدو ان تكون نظرية فى التوازن.فلو كانت محاولة توفيقية لاتخذت من المفهوم الماركسى نقطة انطلاق فى دراسة الصراع وربطه بنظرية التوازن . ولكن كوزر لم يفعل ذلك ، لقد انطلق من فهم زيمل للصراع الى دراسة انواعه ووظائفه الاجتماعية خاصة تلك الوظائف التى تؤدى الى الاستقرار والثبات والتوازن وبالرغم من أن بعض الباحثين يعتبرون ان الفهم الماركسى للصراع يمكن أن يكون فهما وظيفيا ، من حيث أنه يوجه نحو تحقيق غاية نهائية(١٣) . الا ان مصـــادر الصراع والأشكال التى يتشكل بها والنتائج المترتبة عليه فى المفهوم المـــاركسى تختلف اختلافا كليا عن فهم كوزر للصراع .

---

(١٢) Ibid., pp. 15J4—156

(١٣) من حيث أن الصراع فى المفهوم الماركسى يؤدى الى تبدل فى علاقات الانتاج لمصلحة طبقة البروليتاريا ويؤدى فى النهاية الى مجتمع لا طبقى .

ثانيا : ديفيد لوكود ونقد نظرية النسق :

اذا كان كوزر قد اهتم بوظائف الصراع دون أن ينقد نظرية النسق ، فان لوكود Lockwood قد قدم رؤية فى الصراع قائمة على نقد نظرية النسق الاجتماعى . ذهب لوكود فى مثال شهير (١٤) الى أن اهتمام بارسونز بمشكلة النظام العام فى المجتمع قد دفعه الى أن يقيم نظرية فى النسق الاجتماعى على اساس وجود معايير عامة تنظم «حرب الكل ضدالكل» .فنظرية بارسونز مثقلة بافتراضات ومقولات تتصل بدور العناصر المعيارية فى الفعل الاجتماعى ، وهى تركز على العمليات التى من خلالها يتم ضبط بناء الدوافع معياريا للمحافظة على الاستقرار الاجتماعى . وهى بذلك تكون قد أهملت مجموعة المصالح المتصارعة الى تشكل ما أطلق عليه لوكود **الراق التحتى** Substratum للفعل الاجتماعى او النسق الاجتماعى . والمصالح المتصارعة التى تكون هذا الراق التحتى من طبيعة مغايرة للمصالح التى يسعى الفاعل الى تحقيقها فى أثناء توافقه مع التحديد المعيارى للموقف وهى مصالح غير معيارية ، ومن ثم يجب تحليلها بطريقة مستقلة عن البناء المعيارى (١٥) .

ولقد تأثر لوكود بماركس فى فكرته عن المصالح المتصارعة ، فهذه المصالح تنتج اساسا من الصراع الذى ينشأ حول توزيع الموارد الأساسية فى المجتمع . فالتنظيم الواقعى للانتاج ، والقوى والمصالح والجماعات المصاحبة له هى التى تولد الصراع . وتمثل هذه المصالح النظام الواقعى Factual الذى يقابله النظام المعيارى الذى يحوى النظام الواقعى ويوجه السعى الدائم وراء المصالح فيه . وهنا نجد ان لوكود لايرفض النظام المعيارى فهو عنصر من عناصر النسق يوجد مع وجود بنائه التحتى ، واعنى

---

(١٤) David Lockwood, «Some Remarks on the Social System» **British Journal of Sociology**, Vol. 7, June, 1956 pp. 134—146

(١٥) Ibid., pp. 134—138

المصالح المتصارعة والقوة . ويظهر من آراء لوكود اهتمامه بالمصالح المتصارعة المتولدة من الصراع على الموارد النادرة الى درجة انه جعلها شرطا لوجود النظام المعيارى . واذا لم يكن هناك صراع على المصالح فلسنا بحاجة الى النظام المعيارى لضبط هذا الصراع ، فاستمرار النظام المعيارى مرهون بوجود واستمرار النظام الواقعى(١٦) .

وتكشف لنا آراء لوكود عن محاولة لتفادى الأخطاء التى وقعت فيها نظرية النسق والتى من أهمها التركيز على النظام العام . ووسيلته الى ذلك هى الخروج عن دائرة هذا النظام بالبحث عن اساس آخر للعلاقات الاجتماعية وجده فى عالم المصالح المتصارعة والقوة . وفكرة المصالح المتصارعة فكرة ماركسية لا شك فى ذلك . ولكن لوكود لم يأخذها مأخذا ماركسيا على طول الخط ، وانما اعتبرها بناء تحتيا يشكل بناء فوقيا هو نسق المعايير التى تقوم بضبط البناء التحتى وتنظيمه . ويكون لوكود بذلك قد خلق علاقة جدلية بين الصراع والنظام تكشف عن رؤية للمجتمع تحوى العنصرين معا دون التركيز على اى منهما برغم أن فكرة البناء التحتى فى ذاتها توحى بطغيان عنصر على عنصر آخر . واستطيع أن اقول أن لوكود برغم انه حاول ان ينقد الحل المعيارى لمشكلة النظام ، الا انه قدم حلا معياريا لها . فالذين قدموا حلولا لهذه المشكلة — من هوبز الى بارسونز — يؤمنون أن حل هذه المشكلة هو حل لمشكلة الصراع ، فالمعايير فى المشروع البارسونزى هى التى تحقق مستويات متعددة من التكامل داخل المجتمع وهى الاطار المرجعى لاختيار الاهداف والوسائل بمعنى انها هى التى تضفى على المجتمع قدرا كبيرا من النظام وتمنع ما به من صراع . فاذا جاء لوكود وقال بعلاقة جدلية بين المصالح المتصارعة والمعايير فانه لن يكون قد أضاف جديدا ، فاستمرار المعايير فى التحكم فى الصراع — فى نسقه النظرى — يعد ضمانا للاستمرار والاستقرار داخل المجتمع . والذى يؤكد وجهة نظرى هنا هو أن بارسونز نفسه قد قدم هذه التفرقة بين النظام الواقعى والنظام

---

(١٦) Ibid., pp. 138—146.

المعيـــارى وهو بصـــدد تقديم حل لمشكلة النظام فى كتابه « بنـــاء الفعل الاجتماعى » على ما أوضحت فى الفصل الثالث .

ولقد قام بيرسى كوهين Percy Cohen بنقد آراء لوكود وقدم صورة معدلة لها تكشف عن وجهة نظر فى تفسير الواقع الاجتماعى قريبة من الآراء التى نناقشها فى هذا الفصل . قبل كوهن آراء لوكود ولكنه انتقد وقوعه فى بعض الأخطاء منها ماهو منطقى مثل القول بأن استمرار النسق المعيـــارى نفسه يعبر عن استمرار المصالح المتصارعة . فهذه الفكرة قائمة على الاعتقاد بأنه اذا كانت (أ) تتحكم فى (ب) فان استمرار وجود (أ) يتطلب استمرار (ب) . وهى قضية غير منطقية . فالأفراد قد يقومون ببناء أسوار حول المدينة من اجل الدفاع ، ولكن عدم اقدامهم على هدم هذه الأسوار لا يعنى أن حاجتهم الى الدفاع لا تزال قائمة تماما . نستطيع القول بأن النسق المعيارى يمكن أن يستمر بالرغم من اختفاء القوة التى أوجدته ، فهو يستطيع أن يوفر لنفسه ظروف بقائه واستمراره (١٧) .

ذكرت أن كوهين بناء على نقده لآراء لوكود قدم بديلا يعكس وجهة نظر فى تفسير الواقع الاجتماعى . ففى اى عملية للفعل الاجتماعى أو التفـــاعل الاجتماعى يوجد مجموعتان من العوامل يمكن فصلهما من الناحية التحليلية هما : العوامل الخارجية والعوامل الداخلية . فهما اللذان يخلقان السلوك المنظم اجتماعيا ويمكن بالنسبة للعوامل الخارجية التفرقة بين الفاعلين الأفراد والموضوعات الفيزيقية . اما العوامل الداخلية فقد تكون ظروفا غير ثقافية نابعة من الشخص نفســـه مثل الرغبة فى الرحلة او سد الحاجة الى الجوع ويطلق عليها الاستعدادات الطبيعية ، وقد تكون ظروفا تحددها الثقافة مثل المعتقدات ، وضروب المعرفة ومستويات التقييم وأطلق عليها الاستعدادات الثقافية ، ومن خلال ارتباط هذه العوامل بعضها بالبعض الآخر يمـــكن أن

---

(١٧) Percey Cohen, Modern Social Theory, op. cit., p. 109

تظهر اربعة « توليفات » اساسية تعبر عن انماط مختلفة من السلوك . وبناء على تقسيمات اخرى فرعية بين العوامل الخارجية يمكن ان تظهر ثمـــان « توليفات » اخرى . وكلها تعبر عن انماط مثالية قطبية ، بمعنى أن الواقع قد يكشف عن أختلاف هذه الأنماط برغم شمولها (١٨) .

بنـــاء على التفرقة الأساسية بين العوامل الخارجية والداخلية يظهر فى الواقع اربعة انماط من السلوك يعبر عنها الشكل التالى :

العوامل الخارجية

الفاعلون الأفراد الموضوعات الفيزيقية

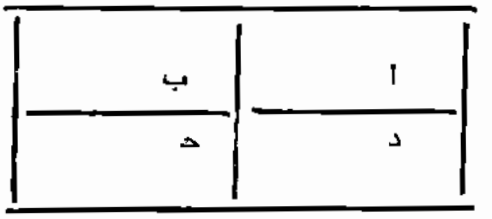

فى هذا الشكل قد يكون الموضوع الخارجى فاعلا فردا يواجه باستعداد طبيعى داخلى وهنا يظهر نمط السلوك (ا) والمثال عليه اتجاه اثنين من الغرباء تجاه بعضهما فى وقت المجاعة ، فكل منهما يعتبر الآخر منافسا فى الحصول على الطعام النادر . اما عندما يكون الموضوع الخارجى موضوعا فيزيقيا بحتا ويكون الاتجـــاه نحو اتجـــاه او استعداد طبيعى يظهر نمط السلوك . (ب) والمثال عليه الاتجاه الذى يكونه اى شخص تجاه ظهور القحط . وقد يكون الموضوع الخارجى فيزيقيا بحتا ولكن الاتجاه نحوه تحدده الثقافة ، فى هذه الحالة يظهر نمط السلوك . (جـ) والمثال عليه اتجاه المسلم او اليهودى نحو لحم الخنزير ، او اتجاه الهندى نحو البقرة ، او

---

(١٨) Ibid., p. 115

نظرة الأفراد فى أغلب المجتمعات البدائية الى الكارثة الطبيعية فى ضوء المعتقدات السحرية او الدينية . واخيرا قد يكون الموضوع الخارجى اجتماعيا والاتجاه نحوه تحدده الثقافة — المثال على ذلك اتجاه صديقين او اكثر ، او اخوين ، او مديرين نحد كل منهما الآخر (١٩) .

ويمكن أن تشتق من هذه التوليفات السلوكية توليفات أخرى بناء على تقسيم العوامل الخارجية . فيمكن تقسيم الفاعلين الأفراد حسب درجة مشاركتهم او تمثيلهم للبناء النظامى ، فتظهر التفرقة بين الموضوعات النظامية Institutional وغير النظامية noninstitutional كما يمكن تقسيم الموضوعات الفيزيقية الى موضوعات مألوفة ثقافيا Fashioned وموضوعات غير مألوفة nonfashioned وهى تفرقة تشبه تفرقة ليفى ستراوس بين الموضوعات المدمجة فى الثقافة Cooked والموضوعات الخام Raw . بناء على التفرقة بين درجة ارتباط الأفراد بالبناء النظامى تظهر لدينا أربعة أنواع من السلوك يعبر عنها الشكل الآتى :

العوامل الاجتماعية

العوامل الداخلية	نظامية	غير نظامية
الطبيعية	أ	ب
الثقافية	د	حـ

اذا كان الفاعل الخارجى مرتبطا بالبناء النظامى والاتجاه نحوه طبيعيا يظهر لدينا نمط السلوك . (أ) وهو نمط نادر الوجود ، فمن الصعب أن نجد

---

(١٩) Ibid., p' 111

شخصا يورك القوة الخارجية كنظام اذا لم يكن قد تشرب بعض الاستعدادت الثقافية نحوه ، المثال الوحيد الذى يمكن ان يعبر عن هذا النمط اتجاه العبد نحو سيده . فهو يدرك أن سلطانه عليه يدعمه قدر من السلطة ، غير أنه قد لايكون التزاما أخلاقيا تجاه هذه السلطة ويكون اتجاهه نحوها اتجاها طبيعيا. أما اذا كان العامل الخارجى غير نظامى والاستعداد نحوه استعداد طبيعى يظهر لدينا نمط السلوك . (ب) والمثال عليه الشخص الذى يدهم تحت أقدام حشد يغادر ملعب الكرة . أما اذا كان العامل الخارجى غير نظامى والاتجاه نحوه ثقافى يظهر نمط السلوك . (ج) والمثال عليه السلوك القائم على الأدب او المساواة بين مجموعة من الأفراد يكونون حشدا . فالحشد يمثل قوة خارجية غير نظامية يتصرف الفرد ازاءها وفق معايير ثقافيـــة . واخيرا عندما يرتبط عامل خارجى له علاقة بالبناء النظامى باتجاه ثقافى يظهر لدينا نمط السلوك . (د) وكل حياتنا تقريبا قائمة على هذا النمط والمثال عليه السلوك السياسى الذى يتأثر بنظام الحزب كما لو كان قوة خارجية (٢٠) .

وبالمثل ينتج تقسيم الموضوعات الفيزيقية الى موضوعات مألوفة واخرى غير مألوفة أربعة انواع أخر من السلوك يعبر عنها الشكل التالى :

الموضوعات الفيزيقية

العوامل الداخلية	مألوفة	غير مألوفة
طبيعية	أ	ب
ثقافيـــة	جـ	د

اذا كان الموضوع الفيزيقى الخارجى مألوفا والاستعداد نحوه طبيعيـــا يظهر النمط السلوكى . (أ) والمثال عليه اتجاه الرجل الجائع المعوز الى

---

(٢٠) Ibid., pp. 112—113

الطعام المطهو ، أما اذا كان هذا الموضوع غير مألوف والاستعداد نحوه طبيعيا يظهر النمط السلوكى . (ب) والمثال عليه الاتجاه نحو الطعام الخام (غير المطهو) لسد رمق الجوع . أما اذا كان الموضوع الخارجى مألوفا والاستعداد نحوه ثقافيا فيظهر النمط السلوكى . (ج) والمثال عليه رفض اكل أنواع من الطعام لأنها غير مقبولة ثقافيا أو النظر الى الجبل او قطعة من الخشب نظرة مقدسة . وأخيرا اذا كان الموضوع الخارجى غير مألوف والاستعداد نحوه ثقافى يظهر النمط الرابع من السلوك . (د) والمثال عليه اعتبار الطعام بطريقة معينة غير نظيف او غير نقى (٢١) .

ويعتقد كوهين ان هذه التفرقة بين الاستعدادات الداخلية والقوى الخارجية تتفادى ما وقع فيه لوكود عندما فصل بين صراع المصالح والبناء المعيارى فصلا ، واعتبر أحدهما بناء تحتيا والآخر بناء فوقيا . فنموذج كوهين يسمح لنا على ما يقول « بتفسير عناصر معينة من البناء الاجتماعى والانساق الاجتماعية فى ضوء درجات مختلفة من تأثير الضوابط الخارجية والداخلية . ويسمح لنا ذلك بادراك الحقيقة التى مؤداها انه فى نسق معين تكون الاستعدادات النظامية والاستعدادات الثقافية المرتبطة بها على درجة كبيرة من الأهمية » (٢٢) . وبناء على ذلك لايكون صراع المصالح هو البناء التحتى على ماذهب لوكود،وانما البناء التحتى يتمثل فى النظم التى تهتم بسد الحاجات الرئيسية انها النظم التى تتحكم فى الموارد والخدمات . أما الصراع نفسه فانه يظهر من عملية التفاعل نفسها ، وهو يظهر بجانب عناصر أخرى تميز الحياة الاجتماعية مثل التعاون والتبادل « فكما ينخرط الأفراد فى الصراع فانهم يحتاجون أيضا الى حلفاء أو شركاء يتفاعلون معهم .. ويظهر كل من

---

(٢١) Ibid., p. 115

(٢٢) Ibid., p. 119

الصراع والتعاون والتبادل .. الخ . من خلال ظروف الحياة الاجتماعية والثقافية » (٢٣) .

تعكس كلمات كوهين هذه انتماءه الى نفس الاتجاه الذى نناقشه فى هذا الفصل . فهو ينظر الى الواقع على أنه بوتقة تتفاعل فيه كل صور الحياة الاجتماعية بدءا من التعاون وحتى الصراع . ولكن الكل يسهم فى النهاية فى وحدة المجتمع . ويؤيد ما أذهب اليه هنا أنه اهتم فى أحد فصول كتابه بالاجابة على سؤال مؤداه : ما الشىء الذى يلم شمل المجتمع ؟ وجاءت اجابته لهذا السؤال مناقشة مستفيضة لمشكلات المشاركة ، والاتساق ، والتضامن ، والامتثال ، والالتزام ، والمجاراة ، والاجماع ، والتبادل ، والتعاون والتكامل والاعتماد الوظيفى ، والمثابرة والاستمرار ، والتناقض والتعارض . ثم اختتم الفصل بالمقابلة بين نموذجى التوازن والصراع وانتهى الى أن الحياة الاجتماعية تضم العناصر التى يضمها نموذج التوازن والعناصر التى يضمها نموذج الصراع فى علاقة تفاعل(٢٤) .

ويذكرنا ذلك بما أشرت اليه فى الفصل الأول من أن كوهين كانت له وجهة نظر خاصة فى التفاف نظريات علم الاجتماع حول مشكلة النظام العام . فكل عناصر النظام العام فى نظره تحوى نقيضها ، وتفسير أحدها يعنى تفسير نقيضه ، بمعنى أننا لا يمكن ان نفهم عدم النظام disorder الا فى ضوء عناصر النظام نفسه . فتفسيرنا لعناصر النظام — وهى القهر ، والتبادل ، والتنبؤ ، والاتساق ، والمثابرة — يعنى تفسيرا للظروف التى لا يظهر فيها سوء النظام . ولا تتضح تلك الحقيقة الا فى الواقع الأمبيريقى حيث نجد أن المجتمعات « تمتلك عناصر متعارضة ، فهى ان كانت تكشف عن صراع المصالح فانها أيضا تمتلك قدرة على المثابرة والنظام » (٢٥) .

---

(٢٣) Ibid., pp. 120—121

(٢٤) Ibid., pp. 129—172

(٢٥) Ibid., p. 12

ونلحظ من آراء كوهين التأثر بعلماء كثيرين منهم ماكس فيبر فى فكرة النمط المثالى ، حيث اعتبر النماذج التى عرضناها هنا ضربا من الأنماط المثالية تعبر عن انماط مثالية للسلوك قد يتوافق معها الواقع الاجتماعى وقد يختلف عنها . ومنهم أيضا بارسونز . فجوهر هذه النظرية قائم على نظامية الموضوعات الخارجية أو عدم نظاميتها . ثم درجة تأثر الأفراد فى سلوكهم بالثقافة أو استعداداتهم الطبيعية . والفكرة الأولى متأثرة بفكرة التشكل النظامى عند بارسونز والفكرة الثانية متأثرة بفكرة التوافق والتكامل بين التوجيهات الدافعية والتوجيهات المعيارية فى المشروع البارسونزى . ومن ثم فان البديل الذى قدمه لم يخرج خروجا راديكاليا من دائرة النظام . حقيقة انه أشار الى ان الصراع والنظام عنصران متفاعلان فى المجتمع ، ولكن حديثه عن النظام كان مستفيضا ، وحديثه عن الصراع مقتضبا : فالنموذج الذى قدمه لا يمكن أن يكشف عن الصراع بالمفهوم الطبقى أو الجماعى ، فهو لا يعدو أن يكون محاولة لتحديد علاقة الأفراد بعالم الأشياء وعالم الثقافة . هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى فان حديثه عن العناصر التى تلم شمل المجتمع به تركيز واضح على عناصر النظام وليس فيه ما يعبر عن الصراع الا مشكلتا التناقض والتعارض ، بل انه تجاهل استخدام كلمة الصراع نفسها فى عرضه لهذه العناصر . كل ذلك يجعل نظريته تتضاءل أمام النظرية الى جاءت لنقدها ، وأعنى نظرية لوكود . فحسب ذلك الأخير انه اعتبر المصالح بؤرة تتحدد حولها علاقات الأفراد .

ثالثا — رالف دارندورف والحتمية السياسية :

اذا كانت محاولة العلماء الذين نناقش نظرياتهم فى هذا الفصل قد ارتبطت بالوظيفية ونظرية التوازن أكثر من ارتباطها بنظرية الصراع ، فان محاولة رالف دارندورف فى دراسة الصراع انطلقت من نقد مرير للوظيفية ولنظرية النسق والتوازن ، بل انها انطلقت من نقد لقضية كوزر التى يفسر فى ضوئها الصراع تفسيرا وظيفيا داخل النسق (٢٦) . واذا كان ذلك يكسب آراء

دارندورف اهمية خاصة داخل هذا الاتجاه ، فان هناك سببا آخر يضيف مزيدا من الاهمية لآرائه وهو أن نظريته انطلقت من منظور ماركسى مؤداه أن الصراع كامن فى كل النظم وهو مصدر التغير فى هذه النظم ، ولكنها اتخذت مسارا غير ماركسى حيث استبدلت علاقات الانتاج فى المفهوم الماركسى بعلاقات السلطة وهذا هو السبب الذى جعلنى أطلق على نظريته « حتمية سياسية » . والواقع انه مع ظهور بعض الآراء التى تحبذ الربط بين دراسة الصراع ودراسة النظام فى فكر دارندورف فاننا يمكن أن نعتبر نظريته دراسة فى سوسيولوجيا الصراع بحق .

سارت نظرية دارندورف فى طريق منظم حيث بدأ بنقد النظريات السابقة عليه كالبارسونزية والماركسية فى الوقت الذى كان يقدم فيه نظريته فى الصراع ركز دارندروف نقده فى مقال ممتاز بعنوان « خارج اليوتوبيا » (٢٧) . يعد من افضل وأعمق نقد للفكر السوسيولوجى الغربى . تدرج دارندورف فى هذا المقال من توضيح خصائص اليوتوبيا وأوجه القصور فيها ، الى تشبيه نظرية علم الاجتماع — خاصة نظرية النسق — باليوتوبيا ، الى تلمس الطريق نحو الخروج من عالم اليوتوبيا هذا الذى تدخلنا فيه نظرية علم الاجتماع .

بدأ دارندورف فى هذا المقال يصف اليوتوبيا « تشترك كل اليوتوبيا فى عنصر واحد يميز بناءها هو أنها جميعا تصور مجتمعات لايظهر فيها التغير »(٢٨)

---

(٢٦) Rex, Discovering Sociology, op. cit., p. 115

(٢٧) Ralf Dahrendorf, «Out of Utopia, Reorientation of Sociological Analysis,» **American Journal of Sociology**, Vol. LXIV, No. 2 (1958) Reprinted in : L. Coser and Bernard Roseberg (eds) **Sociological Theory**, The Macmillan Company, N.Y., 1967, pp. 209–225.

(٢٨) Ibid., p. 209

وتلخص هذه العبارة كل مايريد أن يقوله دارندورف عن اليوتوبيا . فهى تصور مجتمعا ثابتا ومثاليا يحقق أكبر قدر من توحد الجماعة . والخصائص التى أوردها دارندورف لليوتوبيا تؤكد هذه الحقيقة . فهى ـــ اليوتوبيا ـــ لاتظهر من خلال الواقع المألوف حسب قوانين واقعية للتطور ، أى انها تفصل مجتمعا عن سياقه التاريخى وتعزله مكانيا . ويظهر داخل اليوتوبيا اجماع عام على القيم ، وقضية الاجماع على القيم هذه واحدة من العوامل التى تفسر استقرار مجتمع اليوتوبيا ، وعدم نشوء أى ضرب من ضروب الصراع أو الثورة داخله بل ان الأشخاص اللامنتمين Outsiders ليسوا نتاجا للبناء الاجتماعى لمجتمع اليوتوبيا ، انهم منحرفون ويمثلون حالات باثولوجية مصابة بمرض واحد . ويفرز مجتمع اليوتوبيا العمليات اللازمة لاستمراره بهذا الشكل ، منها ضمان تكاثر أفراده ، وتعليم وتربية الأطفال ، وتنظيم الأوضاع الاجتماعية ، وتقسيم العمل . وهذه العمليات هى ايضا metabolism المجتمع الذى يضمن حيويته واستمراره (٢٩) .

يتساءل دارندورف بعد ذلك عما اذا كنا نقابل هذه الخصائص اليوتوبية فى مجتمعاتنا الواقعية ؟ وهل يمكن أن نجد هذا المجتمع الذى يحقق الاجماع العام دون الصراع ؟ تتحدد اجابة دارندورف فى العبارة القاطعة التالية : « من المحقق اننا لسنا بحاجة الى مناقشة هذه الأسئلة ، فمن الواضح أن مثل هذه المجتمعات لا توجد وبنفس الدرجة من الوضوح . نجد أن كل مجتمع معروف لنا يغير من قيمه ونظمه باستمرار . وقد يكون هذا التغير سريعا أو تدريجيا ، عنيفا أو منظما ، شاملا أو محدودا ، ولكنه لايمكن أن يغيب على أى حال حيثما يخلق الأفراد تنظيمات ليعيشوا سويا » (٣٠) . وبعد أن يقرر دارندورف ذلك

---

(٢٩) bid., pp. 210—212

(٣٠) Ibid., p. 212

يظهر استغرابه الشديد أمام واقع النظرية السوسيولوجية المعاصرة : فاذا كنا قد اكدنا أن مجتمع اليوتوبيا ليس له وجود فى الواقع وانه من نتاج الخيال الشعرى ، فكيف تتوافق النظرية السوسيولوجية المعاصرة مع نموذج يوتوبى للمجتمع بحيث تعاود عناصر اليوتوبيا الظهور فى محاولة العلماء لتنظيم معرفتنا عن المجتمع وفى صياغتهم للقضايا النظرية ذات الطبيعة العامة ؟ من هـــذا التساؤل يبدأ دارندورف نقده للنظريات السوسيولوجيةالمعاصرة . فنجده يعقد مقارنة طريفة بين نظرية النسق أو نظرية التوازن وبين مجتمع اليوتوبيا ، بل انه يغالى بالقول بأن النظرية السوسيولوجية لم تستفد بتلك النظرة النقدية التى ميزت اليوتوبيا (٣١) . فالنسق الاجتماعى ــ مثله مثل اليوتوبيا تماما ــ لايقدم لنا واقعا مألوفا ، فبدلا من تجريد عدد محدود من المتغيرات وتحديد اهميتها فى تفسير مشكلة معينة ، يمثل النسق الاجتماعى بناء فوقيا ضخما من المفاهيم التى ليست لها قيمة وصفية ، ومن القضايا التى ليست لها قيمة تفسيرية ، ومن النماذج الضحلة . فهذه المفاهيم والقضايا والنماذج « تسهم فى وصف وتفسير العالم الواقعى الذى يشغل اهتمامنا » (٣٢) .

فالخصائص التى تميز النسق الاجتماعى هى خصـــائص اليوتوبيـــا . فالنسق الاجتماعى به اتفاق عام على القيم ، وهو بذلك لايسمح أبدا بوجود الصراع ، فذلك الأخير يتنافى مع فكرة الاتفاق العام التى تعد أساس الاستقرار

---

(٣١) على اعتبار أن كل يوتوبيا كانت تنطلق فى تصورها للمجتمع اليوتوبى من نقد للمجتمع الواقعى الذى يعيش فيه صاحب اليوتوبيا . ولهذا السبب يقرر دارندورف أنه يظلم الكتاب اليوتوبيين عندما شبههم بعلماء الاجتماع ــ مهما كان اسلوبهم فى التعبير عن آرائهم ــ لأن اليوتوبيين قد نجحـــوا فى أن ينشروا فى زمانهم اهتماما بأوجه النقص والظلم الذى اتســمت بـــه النظم والمعتقدات الموجودة فى مجتمعاتهم .

(٣٢) Ibid., p. 214

النسقى . والشخص الذى يثير الصراع فى النسق هو الشخص المنحرف والذى يشبه « الوغد » الذى يهدد السلام فى مجتمع اليوتوبيا . يتضح ذلك من تعريف بارسونز للانحراف بأنه « ميل دافعى لفاعل معين لأن يسلك سلوكا مضادا لواحد أو أكثر من النماذج المعيارية المتشكلة داخل النظم » ويواجه النسق — مثله مثل مجتمع اليوتوبيا تماما — هذا الانحراف بعملية التنشئة الاجتماعية، والتعليم ، وتحديد الأدوار ، وتقسيم العمل ، وميكانيزمات الضبط الاجتماعى فالنسق فى التحليل الأخير يعتبر شيئا مكتفيا ذاتيا ، متسقا فى داخليته ، مغلقا عن أى تأثيرات خارجية . ولقد أدت هذه النظرة اليوتوبية الى فقدان الاحساس بالمشكلات الأمبيريقية الحقيقية ، كما أدت الى أن يرتبط علم الاجتماع بالاتجاه المحافظ (٣٣) .

وبناء على ذلك فانه لابد من اعادة صياغة النظرية السوسيولوجية لتخرج من عالم اليوتوبيا . فكيف السبيل الى ذلك ؟ تجيب كلمات دارندورف نفسها عن هذا السؤال : « ان الطريق الى خارج اليوتوبيا يبدأ من خلال التعرف على الحقائق المثيرة للاهتمام فى الواقع الاجتماعى ومن خلال تناول المشكلات التى تفرزها هذه الحقائق » (٣٤) واذا كان نموذج النسق لايستطيع أن يؤدى هذه المهمة ، فلابد من نموذج بديل نستطيع من خلاله أن نتناول هذه الخصائص وهذه المشكلات . هذا النموذج فى رأى دارندورف هو نموذج الصراع . فالى جانب كفاءته الأمبيريقية لديه قدرة كبيرة على دراسة التغير ، فالصراع هو القوة الخلاقة التى تصاحب التغير (٣٥) .

ولكن رالف دارندورف — برغم تبنيه لنموذج الصراع — لا يتخلى عن نموذج التوازن . فالمجتمع فى نظره له وجهـــان متساويان : الأول يكشف عن

---

(٣٣) Ibid., p. 221.

(٣٤) Ibid., pp. 215—218

(٣٥) Ibid., p. 225

الاستقرار والتآلف ، والاتفاق العام ، والثانى يكشف عن التغير والصراع والقوة ، « فليس بمقدورنا تصور الواقع تصورا حقيقيا الا اذا وضعنا ايدينا على التفاعل الجدلى بين الثبات والتغير ، والتكامل والصراع » (٣٦) . فاذا كان علم الاجتمـــاع قد اهتم لفترات طويـــلة بالتوازن ، فيجب أن نركز فى المستقبل على المشكلات التى يمكن أن تفسر فى ضوء القوة والصراع والتغير اى أن دارندورف اذا كان قد قبل نموذج التوازن ، فانه الح الى أنه سيركز على نموذج الصراع الكفيل بأن يخرج نموذج التوازن من اطار اليوتوبيا . وهذا هو السبب فى أن دراساته كلها تركزت حول الصراع .

غير ان تكون نظرية فى الصراع لايمكن أن يقوم بمعزل عن نظرية الصراع المسيطرة ، واعنى الماركسية . لابد من تفنيدها وتوضيح مظاهر الضعف فيها قبل تكوين النظرية الجديدة . وقد قام دارندورف بهذه المهمة فى نفس الكتاب الذى قدم فيه نظريته فى الصراع ، واعنى كتابه « الطبقة والصراع الطبقى فى المجتمع الصناعى » (٣٧) . فالنظرية الماركسية فى الصراع الطبقى لم تعـــد تتلاءم مع بناء المجتمعات الصناعية الحديثة . فقد تغير هذا البناء عن الوقت الذى كتب فيه ماركس . وقد أوضح دارندورف مظاهر التغير هذه والتى من اهمها : انفصال الملكية عن الادارة الذى ادى بدوره الى تقليل المسافة بين العامل والمدير واخرج الملاك كلية من مجال الانتاج بحيث لم يعودوا يمارسون سلطاتهم الاستغلالية ، ثم تفتت وحدة الطبقة العاملة فلم يعـــد كل افراد البروليتاريا يشغلون مكانة واحدة . ولهم اسلوب واحد فى الحياة ، ومصالح واحدة ، وانما أصبحوا يشغلون مكانات متعددة ولهم مهارات متعددة بحيث

---

(٣٦) عبد الباسط عبد المعطى ، فى نظرية علم الاجتماع ، **مرجع سابق** ، ص ٣٢٠ .

(٣٧) R. Dahrendorf, **Class and Class Conflict in Industrial Society**, Routledge and Kegan Paul, First Published in 1957, Reprinted in London, 1972.

اصبحت مصالحهم مختلفة الى حد كبير ، ثم ماترتب على ذلك من ظهور الطبقة الوسطى الجديدة ، وما يصاحب تطور المجتمع الراسمالى من حراك اجتماعى ومساواة ، الأمر الذى ادى الى توجه الأبنية الطبقية والصراعات الطبقية الى وجهات عجزت الماركسية عن رؤيتها ، واخيرا التشكل النظامى للصراع الطبقى داخل المجتمع الصناعى من خلال مشاركة العمال فى الادارة وانشاء لجان فض المنازعات الصناعية (٣٨) . كل هذه التغيرات أوجدت مجتمعا صناعيا يختلف عن ذلك الذى تحدث عنه ماركس ، مجتمعا يفرز مظاهر صراع مغايرة للأنماط التى أشار اليها ماركس . وهى مظاهر لا تميز المجتمع الراسمالى وحده وانما تميز المجتمع الصناعى أينما وجد ، ان لم تكن تميز المجتمعات الانسانية بعامة .

يعنى هذا أن التغيرات البنائية التى طرات على المجتمع منذ ماركس لم تبعد الصراع كلية ، ولم تدعم مظاهر النظام داخله على حساب الصراع ،

---

(٣٨) Ibid., pp. 36-37

ويجمع دارسو الصراع على هذه التغيرات التى ادت الى التخفيف من حدة الصراع . وهى تغيرات بعضها سياسى وبعضها الآخر تكنولوجى على راسها انشاء الشركات المساهمة،والفصل بين الملكية والادارة وتكون طبقة الموظفين وتحسن ظروف العمال ، وتزايد عمليات التأميم ، وزيادة تدخل الحكومة ، ولا يعنى ذلك ان الصراع قد اختفى نهائيا ، وانما اضفت هذه التغيرات على الصراع طابعا جديدا وغيرت من موضوعاته واشكاله ، وأساليب التعبير عنه انظر الفصل الممتاز الذى كتبه الدكتور محمد الجوهرى عن الصراع الصناعى فى المصدر التالى :

محمد الجوهرى ، مقدمة فى علم الاجتماع الصناعى ، **مرجع سابق** ، ص ص ١٦٥ — ١٩٢ .

انها فقط ابعدت الصورة الماركسية منه (٢٩) . فاذا كانت الصورة الماركسية عن الصراع تظهره على انه يتولد أساسا من علاقات الاستغلال التى تمارسها طبقة مالكة لأدوات الانتاج على طبقة مسلوبة القوة تعمل ولا تملك فان المجتمع الصناعى — كما يذهب دارندورف — يكشف الآن عن صورة مغايرة للصراع حيث يتولد ذلك الأخير ، ليس من علاقات الانتاج وانما من علاقات السلطة « ففى المشروعات الصناعية فى المجتمع الرأسمالى او مابعد الرأسمالى يوجد أفراد يفرض عليهم التحكم فى أفعال الاخرين واصدار الأوامر لهم ، وأفراد يفرض عليهم عملهم أن يتركوا أنفسهم لحكم الآخرين واطاعة أوامرهم . ويوجد الآن ومنذ مئات السنين مئات الحكومات ، ومئات المجالس التشريعية ومئات المحاكم يصدر اعضاؤها قرارات تؤثر على حياة المواطنين ويوجد فى نفس الوقت من المواطنين من يستطيع أن يحتج ويغير من

---

(٢٩) لا يعنى ذلك ان دارندورف قد رفض الماركسية رفضا . لقد اشاد بفكرتين رئيسيتين فى الماركسية وابقى عليهما وهما : أولا فكرة التغير البنائى فاذا كان التغير الاجتماعى هو موضوعه الاجتماعى الأساسى فانه استخدم مقولة البناء الاجتماعى كأداة لتفسير نظريته فى التغير . فلقد نجح ماركس فى أن يرجع الصراعات التى تؤثر فى التغير الى أنماط من البناء الاجتماعى فالصراع ابن بناء اجتماعى معين ، وخاصة بناء المجتمع الرأسمالى وثانيا فكرة سيادة نوع معين من الصراع فى اى موقف وهو الصراع بين طبقتين فمهما يكن نقد هذه الفكرة فان اى موقف صراعى يتكون من طرفين والحقيقة ان نقاط الالتقاء هذه بين دارندورف وماركس ماهى الا نقاط شكلية باعتراف دارندورف نفسه ، فالالتقاء بينه وبين ماركس ينحصر فى انه نظر الى الصراع على انه كامن فى بناء النظم وهو مصدر التغير فى كل شىء . وبعد ذلك يختلفان فى كل شىء .

انظر :

Ralf Dahrendorf, Class and Class Conflict, op. cit. pp. 119—120

J. Rex, Discovering Sociology, op. cit., pp. 115—116

صوته الانتخابى ولكن يظل دائما مطيعا للقانون . وبالدرجة التى توصف بها اى من هذه العلاقات بأنها علاقات سلطة فاننى استطيع ان أجزم بالقول بأن علاقات السيطرة والخضوع هذه قد سادت التغيرات التى تمت فى القرن الماضى . بل اننا نستطيع أن نذهب الى ابعد من ذلك فنقرر ان نمط السلطة التى تمارس فى المجتمع الراسمالى هى نفسها التى تمارس فى المجتمع ما بعد الراسمالى » (٤٠) .

كما يتضح فى عبارته السابقة انطلق دارندورف من علاقات السلطة أو السيطرة فى تكوين نظرية عامة فى الصراع ، وقد قدم هذه النظرية فى كتابه السابق الاشارة اليه ولخصها فى مقال مشهور (٤١) . تعرف السلطة بأنها « احتمال طاعة اشخاص معينين لقائد جماعة معينة » ويحوى هذا التعريف المأخوذ من ماكس فيبر العناصر التالية :

١ ــ تتحدد السلطة من خلال علاقة التفوق والخضوع .

٢ ــ يحدد الجانب الاعلى للجانب الخاضع بعض مظاهر السلوك فى صورة امر او كبح .

٣ ــ يمتلك الجانب الأعلى الحق فى ان يحدد هذا السلوك فالسلطة هى علاقة شرعية بين السيطرة والخضوع .

٤ ــ حق استخدام السلطة مقصور على جماعات معينة واشخاص معينين .

٥ ــ يقابل الفشل فى اطاعة الأوامر بالجزاء ، فهناك نسق قانونى (أوعرفى) يضمن استمرار تأثير السلطة .

---

(٤٠) Ibid., p. 71

(٤١) R. Dahrendorf, Toward A general Theory of Social Conflict, Reprinted in : Walter Wallance, (ed) Sociological theory. op. cit.

من ذلك يتضح أن هناك انفصالا بين الأدوار الاجتماعية داخل الجماعات المنظمة وهذا الانفصال يعد حقيقة من حقائق البناء الاجتماعى . فهناك أدوار عامة وأدوار تملك حقوقا تمنحها السلطة على الأولى . ولا نستطيع أن نشيد متصلا للانتقال التدريجى فى توزيع السلطة ، فعلاقات السلطة تكشف عن ثنائية حادة بالرغم من أن الواقع الاجتماعى يكشف عن تباين وتداخل بين الجماعات المسيطرة . فأينما وجدت جماعة منظمة يوجد نمطان من شاغلى الأدوار : شاغلى أدوار السيطرة الايجابية (أى المالكين لزمام السلطة) ، وشاغلى أدوار السيطرة السلبية (أى الممتلين للسطلة) وبين هذين النمطين يتولد الصراع (٤٢) .

(أ) يكون شاغلو أدوار السيطرة الايجابية والسلبية « شبه جماعات » لها مصالح كامنة متعارضة ، ترتبط مصلحة أدوار السيطرة الايجابية بالمحافظة على الوضع القائم ، بينما ترتبط مصلحة الأدوار الأخرى بتغييره .

(ب) ما تلبث « شبه الجماعات » هذه ان تتبلور فى جماعات منظمة كالأحزاب والنقابات ، وما تلبث المصالح الكامنة أن تتفتح وتصبح ظاهرة وتتبلور فى برامج وأيديولوجيات .

(ج) تدخل جماعات المصلحة التى تتكون بهذه الطريقة فى صراع مضاد فيما يتعلق بالمحافظة على الوضع القائم أو تغييره .

(د) ويؤدى الصراع بين جماعات المصلحة بهذا المعنى الى تغييرات فى بناء العلاقات الاجتماعية القائمة من خلال التغييرات التى تحدث فى علاقات السيطرة . أما نوع وسرعة وعمق هذا التغير فانها أمور تعتمد على ظروف التغير البنائى التى تختلف أمبريقيا عن جماعة لأخرى .

ويتوقف تبلور الصراع بهذا الشكل على بعض الشروط (الظروف) الأمبريقية فلابد من توفر بعض الظروف الاجتماعية مثل امكان الاتصال بين

---

(٤٢) Ibid., pp. 219—220

الأعضاء لتكوين الجماعات ، وتوفر اساليب للتعبئة والامداد داخل الجماعات ولابد من توفر بعض الظروف السياسية التى تعمل على ظهور جماعات المصلحة ، وأخيرا لابد من وجود بعض الشروط الفنية : مؤسس الجماعة ، وقائدها ، وايديولوجيتها (٤٣) .

ولقد كان دارندورف يتملك حساسية امبيريقية خاصة . فهو لا يهدف الى صياغة نظرية مجردة عامة تنفصل عن الواقع الأمبيريقى كالبارسونزية او الماركسية . ولكنه كان يهدف من وراء نظريته فى الصراع ان تكون اكثر قدرة على اثارة المشكلات الواقعية وتفسيرها ، وقد اعترف فى صدر كتابه « الطبقة والصراع الطبقى فى المجتمع الصناعى » بأن نظرية الصراع تنتمى الى النظريات الوسطى بالصورة التى قدمها بها روبرت ميرتون (٤٤) . نظرية تتكون من « تعميمات نابعة من المشاهدات الملموسة وموجهة نحو تفسيرها » (٤٥) . وهذا هو السبب الذى دفعه الى ان يدعم نظريته بالكثير من الوقائع الأمبيريقية فطبقها على الصراع الذى ينشأ فى المشروع الصناعى ، والصراع الذى ينشأ فى الدولة الشمولية .

---

(٤٣) Ibid., pp. 221

(٤٤) النظريات الوسطى Middle Range Theories محاولة قدمها روبرت ميرتون لسد الفجوة بين التجريدات النظرية العليا والقضايا الأمبيريقية الواقعية . فالنظرية الوسطى هى تلك التى تقع بين الفروض العاملة التى تظهر فى الممارسة اليومية ، والجهود المنظمة التى تحاول أن تطور نظرية عامة لتفسير مظاهر السلوك الاجتماعى والتنظيم الاجتماعى والتغير الاجتماعى . وتكتسب النظرية الوسطى أهميتها من كونها أكثر قدرة على تفسير المشاهدات الواقعية وصياغتها فى قضايا قابلة للاختبار الأمبيريقى . ومن أهم النظريات المتوسطة المدى فى رأى ميرتون نظرية الجماعة المرجعية والحرمان النسبى ، ونظرية زمرة الدور Rol-Set .

انظر: R. Merton, **Social Theory and Social Structure**, : Publishing Co. P.V.T. Ltd. New Delhi, New York, 1968, pp. 39—68

(٤٥) Ralf Dohrendorf, Class and Class. op. cit., p. X

والحقق أن نظرية دارندورف بالصورة التى عرضناها بهـا تعـد أكثر محاولات الخروج من دائرة النظام جدية واصالة . ذلك انه وضـع كلا من الماركسية والبارسونزية على مستوى واحد هو اليوتوبيا . فكل نظرية منهما تعتبر يوتوبيا يجب على المتخصصين فى علم الاجتمـاع أن يتجاوزوها وان يوجهوا دراساتهم وبحوثهم نحو صياغة نظرية جديدة اكثر تفسيرا للواقع . وفى محاولته لصياغة نظرية جديدة اهتم دارندورف بالصراع الاجتماعى الذى أهمله دعاة النظام . ويكون بذلك قد نجح — على بساطة هذا النجاح — فى الخروج من دائرة النظام ، غير ان هذا الخروج من دائرة النظام يقترن ايضا بالخروج من دائرة نظرية الصراع الأم ، وأعنى الماركسية . حقيقة انه قبل الشكل العام للصراع كما تصوره ماركس ، ولكنه فى ذات الوقت رفض مضمونه ليقدم مضمونا جديدا استبدل فيه الحتمية الاقتصادية بالحتمية السياسية . ومن هنا تميز فكر دارندورف : فلا نستطيع ان نجزم بأنه وظيفى ولا نستطيع أن نجزم بأنه ماركسى . لقد وضع الوظيفية والماركسية على محك واحد هو تصوريهما لمجتمع اليوتوبيا .

ولكن ذلك لايبعد عن دارندورف سهام النقد،ذلك أن النموذج الذى قدمه لايتميز برؤية محددة ، وانما يجمع بين عناصر التوازن والاستقرار ، وعناصر الصراع والتغير فهو لا يخرج عن كونه محاولة تأليفية ، ولكنهـا محاولة لاتقـوم على اسس موضوعية . ذلك لأنه قبل بعض مقولات الوظيفية التى نقـدها ، ورفض مضمون الماركسية رفضا ، ولم يقبل الا شكلها العام ، وأعنى تصور المجتمع على أنه يحوى عمليات مستمرة من الصراع . فقد قبل دارندورف قضية التكامل وقضية الاجماع العام على القيم وهما قضيتان جوهريتان فى النظرية الوظيفية ، ثم ربطهما ببعض قضايا الصراع التى طورها والتى اهمها القضية التى تذهب الى ان الصراع ينشأ من عمليات التحكم والسيطرة التى يمارسها بعض الأفراد على البعض الآخر . ويدعونا هذا الى القول بأن نقد

دارندورف لماركس لايخلو من بعض الظلال الايديولوجية . فالتغيرات البنائية التى عددها فى المجتمع الغربى منذ ماركس وحتى الآن ، وتركيزه على ما يتميز به المجتمع الراسمالى من حراك اجتماعى ، يوحى بوجود خيوط تربط بين تفكيره وبين تفكير التطوريين المحدثين ، من امثال والت روستو ، الذين صوروا المجتمع الصناعى الحديث على انه يمر بمرحلة الاستهلاك الوفير تغيب فيه كل مظاهر الصراع الاجتماعى (٤٦) . والذى يدل على وجود هذه الخيوط ان دارندورف قد قدم آراءه لتفسير الماركسية والرد عليها ، وهى نفس المهمة التى قام بها التطوريون المحدثون من خلال كتاباتهم التطورية . الفرق الوحيد بين دارندورف والتطوريين المحدثين أن دارندورف قد قبل من ماركس فكرة الصراع قبولا شكليا بعد أن جردها من مضمونها الاقتصادى ؛ ثم كسا هذا المضمون الاقتصادى بمضمون سياسى عندما جعل من علاقات السلطة بؤرة الصراع الاجتماعى دون التركيز على اى مصدر آخر من مصادر الصراع وهو فى ذلك يكون قد انحاز فى صف الوظيفية على حساب الماركسية .

ولقد قام فان دن برج Van Den Berge بنقد نظرية دارندورف وقدم على اثر هذا النقد صورة للتاليف بين الهيجلية الماركسية وبين البنائية الوظيفية. اعتقد فان دن برج — خلاف ما ذهبت فى عرضى لآراء دارندورف — (٤٧) الى أن دارندورف قد تحيز فى صف الجدلية ضد الوظيفية . فقد اعتبر أن كلا

---

(٤٦) عن الاتجاه التطورى المحدث ، انظر السيد الحسينى « اتجاهات علم الاجتماع فى فهم مشكلات الدول النامية » فى السيد الحسينى وآخرين ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، **مرجع سابق** ص ٦٤ — ٧٣ .

(٤٧) مازلت اؤكد أن دارندورف انحاز الى الوظيفية ضد ماركس ، فنقده للماركسية يدل على انه قبل كل مسلمات الوظيفية حيث نقد الماركسية من منظور وظيفى . ولم يأخذ من الماركسية الا فكرة الثنائية وفكرة بنائية الصراع وعندما قدم بديله فى الصراع قلب جوهر الماركسية راسا على عقب دون أن يقدم اى مبرر على اسبقية الصراع على مصادر السلطة على الصراع على علاقات الانتاج الذى يعد جوهر المفهوم الماركسى .

الاتجاهين مكمل للآخر (على ما بهما من نقاط قصور) غير أنه ربط نفسه بمحاولة تطوير جانب معين من نظرية الصراع ، وهو الصراع الطبقى الذى يعتبر حالة خاصة من نموذج الصراع الشامل . لقد رفض دارندورف تعريف ماركس للطبقة كما تتحدد من خلال علاقتها بقوى الانتاج ، واستبدله بتعريف الطبقة بناء على التوزيع غير العادل للسلطة . وبناء على ذلك اشتق نموذجا ثنائيا للصراع الطبقى،ولكنه لم يطبقه على المجتمع ككل مثلما فعل ماركس وانما طبقه على الجماعات المنظمة داخل المجتمع ، والمجتمع يصبح بذلك حشدا كبيرا من الثنائيات الطبقية التى تتبلور حول النضـــال من أجـــل السلطة . وصب فان دن برج نقده على فكرة الصراع على السلطة وفكرة ثنائية الصراع على اساس ان الأولى ما هى الا مصدر واحد من مصادر الصراع ، وأن الثـــانية توقعه فى نفس المأزق الماركسى الخـــاص بمعالجة الجماعات الوســـيطة . فالسلطة ـــ اذا كانت مصدرا للصراع ـــ لا تبطل مفعول العوامل الأخرى للصراع ، وهى ليست سابقة على هذه المصادر . والاستقطاب يعد اتجاها امبيريقيا وليس شرطا ضروريا للصراع(٤٨) .

ولكن ماهو البديل الذى قدمه فان دن برج لنظرية دارندورف . فى مقاله المشار اليه هنا حاول برج أن يستخلص من كل من البنائية الوظيفيـــــة والهيجلية الماركسية صورة دقيقة خالصة من كل أوجه النقد الذى وجهه لها ووجهه كثيرون غيره ، لكى يقيم بينها تآلفا نظريا . واذا كانت الوظيفيـــة تنحصر فى أربعة قضايا رئيسية هى : الكلية ، وتعـــدد العليـــة وتبادلها ، والاجماع على القيم ، والتوازن الدينامى ، فان برج قبل قضية الكلية وتعدد العلية لكى لا يقع فيما وقع فيه الأنثروبولوجيون الانتشاريون من نزع العناصر

---

(٤٨) Pierre Van Den Berghe «Dialectic and Functionalism Toward A Theoretical Synthesis. **A.S.R.**, October, 1963, Reprinted in : Walyer Wallence, **Sociological Theory**, op. cit., pp. 207–208.

من سياقها الثقافى فيما يتعلق بقضية الكلية ، ولكى لايقع فى أى من نقاط ضعف الحتميات ذات الجانب الواحد فيما يتعلق بقضية تعدد العلية . ثم رفض قضية الاجماع على أساس أنها قيدت الوظيفية عن رؤية الصراع . أما القضية الأخيرة المتصلة بالتوازن الدينامى فقد حاول برج أن يخلصه من مظاهر ضعفه : فنموذج التوازن اذا كان يستطيع أن يفسر ثلاثة مصادر للتغير هى التكيف مع التغيرات الخارجية ، والتباين البنـــائى الوظيفى ، والاختراعات والتجديدات التى يقدمها الأفراد والجماعات داخل المجتمع . الا انه لا يستطيع أن يفسر مصادر أخرى مثل الصراع بين عناصر النسق والذى يؤدى الى الثورة ، والصراعات والتناقضات الداخليـــة . فاذا استطاع نموذج التوازن ان يستوعب هذه المصادر للتغير فانه يكون نموذجا معدلا يقبله فان دن برج . وبهذا تكتمل الصورة الدقيقة التى استخلصهـــا برج من الوظيفية فى نموذج التوازن الذى يستطيع ان يفسر كل مظاهر الصراع السابقة فى اطار الكلية وتعدد العلية (٤٩) .

أما الاتجاه الجدلى الهيجلى فانه يعانى من نقطتى ضعف رئيسيتين هما ادعاءه بأن العملية الجدلية هى المصدر الرئيسى للتغير ادعاء غير منطقى لأنه يهمل عملية التباين والتكيف مع التغيرات الخارجية . ثم النظرة الثنائية الى الواقع الاجتماعى : فالصراعات والتناقضات تستقطب فى أزواج من الأضداد وبعد التخلص من نقطتى الضعف هاتين ، استخلص برج الصورة الدقيقـــة للهيجلية الماركسية التى يمكن الاستفادة منها فى عملية التآلف النظرى ، والتى تنحصر فى قضيتين رئيسيتين : النظر الى البناء الاجتماعى لا على أساس أنه اطار ثابت فحسب ولكن على أساس أنه مصدر حاسم للتغير . يظهر التغير من داخل النسق التناقض والصراع بين عاملين متعارضين أو أكثر ، وهذه العوامل يمكن ان تضم القيم ، والأيديولوجيا الدينية والثقافية والأدوار ، والنظم والجماعات (٥٠) .

---

(٤٩) Ibid., pp. 202—205

(٥٠) Ibid., pp. 205—207

بعد ان توصل برج الى هاتين الصورتين الخالصتين من اى نقد حاول أن يوجد قدرا من التآلف النظرى بينهما . ويقرر بداءة أن هذا التآلف لايعنى أن كل نظرية تكمل النظرية الأخرى فقط ؛ ولكن يعنى ايضا ان هنـــاك مجالات للالتقاء والتداخل فيما بينها . تتجلى هذه المجالات فيما يلى (٥١) .

١ ــ ان كل اتجـــاه من هذين الاتجاهين كلى ؛ بمعنى انـــه ينظر الى المجتمعات كأنساق تتألف من عناصر مترابطة . حقيقة ان النظرة الكلية تختلف بين الاتجاهين خاصة فكرة العلية . الا ان كلا الاتجاهين يميل الى التأكيد على العلاقة المتبادلة ، والى تقليل درجة التجزىء الممكنة داخل النسق . كما ان النظرة الكلية للوظيفية يمكن ان تتصور انساقا فرعية غير مترابطة من الناحية الوظيفية ومتعارضة من الناحية البنائية غير انها متداخلة لأن هناك بعض العناصر المشتركة بينها ــ وهكذا يحوى مبـــدأ التكامل فى الوظيفية جدليته الخاصة .

٢ ــ يمكن ان نتصور دورا مزدوجا لكل من الصراع والاتفاق العام فاذا كانت الوظيفية تجعل الاتفاق العام بؤرة هامة فى الاستقرار فان نفس هذا الاتفاق قد يولد الصراع . واذا كانت الماركسية تجعل الصراع مصدرا لعدم التكامل والتغير الثورى ، فان الصراع نفسه قد يكون وظيفيا يحقق التكامل . فى هذه الحالة نجد أن كلا من الصراع والاتفاق العام مفيد فى تحليل التعارض والصراع ؛ ويمكن استخدام مفهوم الصراع فى تحليل التكامل والتوازن .

٣ ــ تشترك كل من الوظيفة والجدلية فى نظرة تطورية للتغير الاجتماعى فالعملية الجدلية عند كل من هيجل وماركس تعنى صعودا حلزونيا تجاه التقدم فالمفهوم الوظيفى عن التباين ينمو نموا تطوريا فى التعقد البنائى والتخصص الوظيفى . حقيقة أن رؤية التطور هنا غير رؤيته هناك . ولكن ذلك لا يمنع

---

(٥١) Ibid., pp. 208—212

وجود عنصر مشترك بينهما ينحصر فى أن كلا منهما تذهب الى أن مرحلة معينة من النسق الاجتماعى تضع فى اعتبارها كل المراحل السابقة وتحتويها فى شكل معدل .

٤ — تقوم كل نظرية بصفة رئيسية على فكرة التوازن ؛ واذا كانت فكرة التوازن واضحة للعيان فى الوظيفية ، فان سياق الفكرة ونقيضها والتآلف بينهما فى الاتجاه الجدلى يتضمن أيضا فكرة التوازن على أساس أن التآلف يعتبر حلا للتناقض بين الفكرة ونقيضها .

ولا أستطيع أن أصف آراء برج التى عرضناها هنا الا أنها محاولة لادماج الماركسية داخل فكرة التوازن الوظيفية . فمنذ البداية يتضح تحيزه للوظيفية حيث عرضها باستفاضة وأكد أنه سوف يوضح أنها « ليست أسطورة ولكنها اتجاه هام فى فهم الواقع الاجتماعى » (٥٢) . وعندما اتجه الى الجدلية كان نقده واضحا — وقاسيا — منذ البداية.ويتضح ذلك فى عباراته نفسها حيث يقول : « لنتجه الآن الى الجدلية ونرى ما اذا كانت تستطيع أن تكون نظرية اجتماعية » (٥٣) . ويقول فى نفس الفقرة « وليس هنا مكان لنقد الجدلية المادية او الهيجلية المثالية ؛ فهذه المهمة قام بها عدد لا يحصى من الأفراد ، كما أنه لا جدوى من ضرب الشاة بعد ذبحها » واذا قارنا بين بداية حديثه عن الوظيفية وبداية حديثه عن الجدلية لاتضح مدى تحيزه للوظيفية ولكن هناك أشياء اخرى تدعم هذا التحيز منها :

١ — أنه عند ما نقد الوظيفية يكاد يكون قد قبل كل قضاياها بعد تعديل بعضها . واذا كان يتضح لنا من النقد أنه رفض قضية الاتفاق العام ، فانه فى مشروعه التأليفى قد جاء بهذه القضية مرة أخرى وجعلها جزءا من عملية التآلف النظرى . ويكاد يكون نموذجه التأليفى هو نفس الصورة الدقيقة للوظيفة التى استخلصها من نقده لها . وعندما نقد الجدلية لم يقبل منها

---

(٥٢) Ibid., p. 22

(٥٣) Ibid., p. 25

الا قضية الصراع ، وقضية التغير وقبولهما هو قبول شكلى فقط حيث لم يظهر فى مشروعه التاليفى اى اشارة الى الصراع بالمفهوم الماركسى أو التغير بالمفهوم الماركسى .

٢ ــ أن مشروعه التاليفى هو نفس القضايا الوظيفية مع تعديل بعضها انه يتصور ان قضايا نظرية الصراع يمكن ردها الى هذه القضايا . أو ان هذه القضايا يمكن ان تفسر الصراع وفى كلا الحالين فانه يظهر ميلا لاستبعاد نظرية الصراع . هذا فضلا عن أنه لم يأخذ الصراع مأخذا ماركسيا لانه : أولا : رفض ثنائية الصراع بالمعنى الماركسى ، وثانيا : عدم الاشارة الى مصدر الصراع بالمعنى الماركسى . فالوظيفة كلية بالمعنى الماركسى وقضية الاتفاق العام فيها يمكن ان تفسر الصراع . فالاتفاق قد يولد الصراع كما أنه يمكن ان يتجاور معه . وقضية التوازن المعدلة تستطيع أن تفسر التفسير الناتج عن الحلقة المفرغة من التكامل والتغير الثورى . وأخيرا تكشف الوظيفية عن نظرة تطورية مثلها مثل الماركسية .

٣ ــ انه قد فهم التوازن فى المفهوم الماركسى فهما خاطئا . فقد فهمه على انه توازن بعيد المدى يخلق من التآلف بين الفكرة ونقيضها ، أو الشىء ونقيضه اذا شئنا انتقالا الى العالم الاجتماعى . غير ان التوازن فى المادية التاريخية يعد استثناء لقاعدة أساسية هى التناقض والصراع والحركة والتغير والتطور التقدمى . وان هذا التوازن مؤقت ونسبى فى استقراره واستمراره . فتوازن علاقات الانتاج أكثر من توازن قوى الانتاج ، وتوازن علاقة بناء المجتمع ببيئته أكثر من توازن علاقة مكونات هذا البناء ، وتوازن شكل الظاهرة أكثر من توازن مضمونها . ومن خصائص التوازن انه جدلى يؤثر ويتأثر ، وان المكونات المتوازنة تعيش حالات من التوازن والتناقض ووحدة وصراع الأضداد ، وهدف التوازن اعادة الأحوال الى سابق عهدها ، بل هو يقدم شكلا من المجتمع مغايرا للشكل الأول . واخيرا يولى التوازن بالمفهوم الجدلى للتناقضات الداخلية دورا أكبر من التناقضات

الخارجية ومن هنا يكون التوازن فى المادية التاريخية مختلفا عن التوازن فى البنائية الوظيفية (٥٤) . ومثل ذلك يمكن أن يقـــال عن الخلط بين فكرة التطور بالمعنى المادى الجدلى وبين فكرة التطور بالمعنى الوظيفى بذلك لا يكون بيرج قد خرج من اطار الوظيفية وانه ينتمى الى نفس الاتجاه الذى ينتمى اليه رالف دارندورف وبيرسى كوهين ولوكود وكوزر .

رابعا ــ التوازن والصراع فى بعض البحوث الأمبيريقية :

ذكرت فى موضع لاحق أنه من أحد تأثيرات محاولة تناول فكرة الصراع وربطها بفكرة النظام اثراء البحث الامبيريقى لدى بعض المؤمنين بهـــذه الفكرة نظريا . فقد رأينا فى الفصل الرابع مدى التأثير الضافى لفكرة النظام على البحث الامبيريقى ، حيث أجتهد الامبيريقيون فى تدعيم نظريته ومستويات التكامل فيها بكم هائل من البيانات والملاحظات الامبيريقية الكمية والكيفية المستقاة من مجتمعات عديدة ومن مجالات عديدة . ولكن بعد أن بدأ الاتجاه الذى وسمته « بمحاولة الخروج من دائرة النظام » يأخذ مكانة واضحة المعالم بين الاتجاهات المختلفة فى علم الاجتماع ، بدأ جماعة من الأمبيريقيين يفسحون فى ابحاثهم مجالا لدراسة الصراع والتغير بجانب دراستهم للتوازن والاتساق . غير أن ذلك لم يقلل من طغيـــان الاتجـــاه الأول وسيطرته واستمراريته . فرغم ما ظهر من اتجاهات نقدية فى علم الاجتماع الغربى ، الا ان النظرية المرتبطة بالنظام ــ على اختلاف مسمياتها ــ البنائية الوظيفية نظرية التكامل ، ما تزال مسيطرة على مقررات البحث فى هـــذا العلم . ولا شك أن ذلك يؤدى الى استمرار الحركة الامبيريقية المدعمة لها على ما رأينا فى الفصل الرابع . وفى هذه الفقرة نعرض ــ باختصار ــ لنماذج من البحوث الامبيريقية التى تأثرت « بمحاولات الخروج من دائرة النظام » .

---

(٥٤) انظر : عبد الباسط عبد المعطى ، فكرة التوازن فى المـــادية التاريخية ، مقال فى كتاب **دراسات فى علم الاجتماع والانثروبولوجيـــا** ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٥ ، ص ص ٦٤ ــ ٨١خاصةص ٧٥،ص٨٠.

ربما كان مجال دراسة التنظيمات هو أرحب المجالات التى استقطبت علماء الاجتماع الامبريقيين لأسباب ذكرت بعضها فى الفصل الرابع ولذلك كانت من أول المجالات التى اختبرت فيها نظرية الصراع فى علاقتها بنظرية النسق او التوازن . وقد قام بالمحاولات المبكرة فى هذا الصدد أصحاب هذه الفكرة انفسهم أمثال دارندورف ولوكود على ما رأينا . ثم استمرت بعدهما عملية اختبار هذا الاتجاه فى مجال التنظيمات .

من أول الدراسات التى حاولت بحث الصراع فى مجال التنظيم دراسة ملفيل دالتون Dalton التى اجراها على ستة تنظيمات صناعية أمريكية مستخدما اداة الملاحظة بالمشاركة (٥٥) اوضح دالتون أن الزمر والجماعات غير الرسمية تنمو فى التنظيم لا بسبب التوجيهات التى يحصل عليها الأفراد من خارج التنظيم . بل بسبب طبيعة الأوضاع الاجتماعية المختلفة التى يشغلونها فى البناء الاجتماعى للتنظيم . فهناك فروق فى العمر ، والقدرات الفردية ، والتوقعات تجعل الناس ينظرون الى عملهم بطريقة مختلفة . هذا فضلا عما يخلقه تقسيم العمل من تصورات مختلفة فى المصالح ومن خلال ذلك ابرز دالتون الصراع الذى ينشأ بين الجماعات المختلفة داخل التنظيمات والذى يزكيه السعى المستمر من اجل الحصول على مزيد من القوة والسيطرة وضمان الحصول على القسط الأكبر من مكافآت التنظيمات .

---

(٥٥) M. Dalton, **Man Who Manage**, New York, 1959

وقد اعتمدت فى عرضها على المصدر التالى : السيد الحسينى ، **النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم** ، مرجع سابق ص ٢١٧ ، ص ص ٢٣٩ — ٢٤٠

(٥٦) H. Assaél, «**Constructive Role of Inter-organizational Conflict**, A.S.Q. No. 4, 1969 pp. 573—582.

وقد اعتمدت فى عرضها على المصدر التالى : عبد الباسط عبد المعطى ، **فى نظرية علم الاجتماع** ، مرجع سابق ، ص ١٧٩ ويلاحظ على هذه الدراسة تأثرها البالغ بآراء كوزر (حيث يعتبر الصراع وظيفياً) ولوكود (حيث يظهر أن الصراع مصدره التنافس حول المصادر النادرة) ودارندورف (فى وسائل حل الصراع)

ومن الدراسات فى مجال التنظيمات الدراسة التى أجراها هنرى أسل Assael على خمسة تنظيمات لصناعة السيارات فى مدينة نيويورك (٥٦) وقد حاول أسل فى هذه الدراسة أن يوضح الظروف البنائية التى تجعل الصراع بين التنظيمات وظيفيا ومعوقا للوظائف . وتوصلت الدراسة الى أن الصراع يكون وظيفيا اذا كان بناء التنظيم مرنا . ومن المؤشرات التى تدل على مرونة البناء : الاتصال المؤثر بين أطراف الصراع ، والتوزيع المتساوى للمصادر النادرة التى يحاول كل طرف أن يحصل عليها ويحرم الآخر منها ، وتقنين وسائل حل الصراع وتحديدها سواء بالاتفاق والتراضى ، أو بالتنازل أو بخلق توازن للقوة داخل النسق .

وقد امتد تأثير هذا الاتجاه فى دراسة التنظيمات الى خارج المناطق التى ظهر فيها . فقد اجـرى السيد الحسينى دراسـة على تنظيمين مصريين تنتمى — بوضوح منقطع النظير — الى الاتجاه الذى يربط بين الاستقرار والتغير ، والاتساق والصراع نظريا وامبيريقيا (٥٧) وتحوى الدراسة الى جانب الاسهام الامبيريقى اسهاما نظريا طوره الباحث من نقد مستفيض للنظريات الكلاسيكية من دراسة التنظيم (ماركس — فيبر — ميشيلز) والاتجاهات النظرية الحديثة (البنائية الوظيفية ، واتجاه النسق الفنى ، والاتجاه النفسى الاجتماعى) وما ارتبط بهما من بحوث امبيريقية يتمثل هذا الاسهام فى رؤية التنظيم « بوصفه مزيجا من عناصر تدعم التوازن والتكامل وعناصر تعبر عن جوانب الصراع والقوة والتغير مع منح العناصر الأخيرة مزيدا من الاهتمام والتخصيص » (٥٨) « فالتنظيم يمثل نتاجا لأبعاد بنائية ومتغيرات اجتماعية لا تكف جميعها لحظة عن التغير » (٥٩) .

---

(٥٧) السيد الحسينى ، النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم ، **مرجع سابق** ، وقد نشرت نتائج هذه الدراسة فى مقال بالانجليزية انظر :

Sayed El Hussein, «Organizational Dynamics» A comparative Study of Two Egyptian Industrial Organizations» **Die Dritte Welt**, No. 2 1975

(٥٨) المرجع السابق ص ٢٣٦

(٥٩) نفس المرجع ص ٢٣٧

يكشف النصان عن محاولة لتطوير نظرية النسق فى البنائية الوظيفية فلقد ادرك الحسينى من خلال نقده للنظريات المعاصرة فى التنظيم أن هـذه النظريات قد اهملت البحث فى الظروف التاريخية التى مرت بها التنظيمات والأوضاع الاجتماعية التى تمارس وظائفها فى ظلها ، الى جانب اهمالهـا لمشكلات الصراع ومشكلات توزيع القوة ومشكلات التغير .

ومن هنا جاء الاسهام النظرى الذى قدمه ليحوى هذه الأمور الثلاثة التى اهملتها النظريات المعاصرة . ولكن ما رؤيته لهذه المشكلات ومن أين استقى افكاره فى تاصيلها ؟ اذا أجبنا على هذا السؤال اتضح لنا أصالة هذا الاسهام وجدته . ان رؤيته لهذه المشكلات واضحة ، فالتنظيم هو بناء غير منفصل الأجزاء غير مقطوع الصلة بالسمات التنظيمية والأبعاد التاريخية التى يمر بها المجتمع الذى يوجد فيه هذا التنظيم والبناء التنظيمى ليس ثابتا ومستقرا فقط ، ولكنه يكشف عن مستويات عديدة من الصراع بين جماعات العمـل المختلفةوبين الجماعات ذوى المصالح المختلفة ، وبين الادارة والعمال ، وبين النقابة والادارة ، وبين المصالح الادارية المختلفة ... الخ ويؤدى هـذا الصراع الكامن فى التنظيم الى أن يعيش التنظيم سلسلة متصلة الحلقات من التغير . أما عن المصادر التى استقى منها هذه الأفكار فتنحصر فىمصدرين .

١ ــ الاستفادة من القضايا الكلاسيكية التى أثارها كل من ماكس فيبر وماركس وميشيلز والتى اهتمت بفهم التنظيم فى ضوء الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى شهدتها المجتمعات الصناعية الراسمالية والتأثير الذى تمارسه التنظيمات على بناء القوة فى المجتمع وعلى جوهر حرية الانسان وصميم وجوده .

٢ ــ الاستفادة من بعض الرؤى الحديثة التى ربطت التنظيم ببنائه ، وحاولت دراسة مشكلات القوة والصراع فيه . وهنا وجدت الدراسة عناصر تقدمية فى اعمال سيجفريد ناديل Nadel الذى اهتم بدراسة القوة من خلال

متغيرات للسيطرة والخضوع والتبعية والسمو والدونية والتنسيق . وفى أعمال دالتون Dalton وكوزييه Corzier وسايلز Sayles وكلها دراسات ادركت اهمية البناء السياسى فى التنظيم وما يترتب عليه من صراع بين جماعات المصالح المختلفة . هذا فضلا عن أعمال جيس برنارد Bernard ورينهارد بندكس Bendix ورالف دارندورف وسيمور ليبست Lipset وكولاجا Kolaga والفن جولندر ، أينما تأثرت هذه الأعمال بالتحرر من أسر قضية التناغم الوظيفية .

والحقق أن هذه المصادر قد حررت الباحث من الحدود التى تفرضها نظرية النسق بحيث أصبح مفهوم النسق عنده مفهوما أكثر مرونة واكثر استيعابا لعناصر الصراع والتغير ، هذا فضلا عن انها حررته من كل المثالب التى وقع فيها أنصار الاتجاه التوفيقى من أمثال دارندورف ولوكود والذى تمثل فى قبول شكل التفكير الماركسى دون جوهره وفى الاهتمام بعناصر الصياغة النظامية للصراع فى المجتمع الصناعى الحديث . وهذا هو الذى جعلنى أعتبر هذه الدراسة اسهاما نظريا لا يخلو من أصالة واستقلال . فرغم انتمائها الى «محاولات الخروج من دائرة النظام» التى ناقشناها فى هذا الفصل، الا أن الفكرة التى تقوم عليها تختلف بقدر عن التيار الرئيسى لهذه المحاولات . ويتمثل هذا الاختلاف فى رجعتها الأصيلة الى القضايا الكلاسيكية فى مضمونها وليس فى شكلها ، الى جانب تحررها الواضح من أسر التفكير الغربى المحافظ .

الى جانب هذا الاسهام النظرى قدمت لنا دراسة الحسينى اسهاما منهجيا أمبريقيا تمثل فى عنصرين رئيسيين : الأول : التغلب على معضلة المنهج فى دراسة التنظيمات وذلك بالجمع بين منهج دراسة الحالة الذى يتيح لنا رؤية نفاذة الى واقع التنظيم وبنائه وبين المنهج المقارن الذى يتيح قدرا من التقييم ، والفهم العميق على مستوى التنظيمات ككل ، فيما أسماه المقارنة المحدودة . وهذا المنهج يتيح لنا الى جانب تفادى نقاط القصور التى يقع فيها منهج المقارنة ومنهج دراسة الحالة كمنهجين منفصلين ، التعمق فى

القضايا التى يحويها الاطار النظرى الذى طوره . فأى من المنهجين وحده لا يستطيع دراسة هذه القضايا . والثانى : اختبار الاطار النظرى — ومن خلال المنهج المقترح — فى دراسة تنظيمين صناعيين مصريين ، وتوصل الباحث من خلال دراسته الأمبيريقية لهذين التنظيمين الى مجموعة من النتائج قدمت تدعيما امبيريقيا أوليا لاطاره النظرى . تنحصر هذه النتائج فيما يلى :

١ — أن ديناميات التنظيم فى المجتمع المصرى تتحدد أساسا من خلال الاطار الأيديولوجى السائد فى هذا المجتمع كما تتحدد من خلال الظروف التاريخية التى يمر بها كل تنظيم على حدة . فقد اتضح أن الظروف البنائية (الداخلية والخارجية) والتى تمثلت فى تغيرات بنائية عبر قرنين من الزمان كان لها تأثير ملحوظ على ديناميات التنظيم فى كلا التنظيمين . ففى التنظيم الأول — وهو تنظيم قديم مر بمرحلة التأميم — خلقت التغيرات البنائية فى نمط الملكية داخله حالة من الانومى بين العمال ، وظهرت صراعات بين الادارة والعمال أذكتها احداث بنائية داخل التنظيم نفسه بسبب فشله فى تحقيق أرباح عام ١٩٦٩ الأمر الذى جعل الادارة تتبنى استراتيجية قائمة على الضبط المطلق أما التنظيم الثانى — وهو تنظيم حديث أسس بعد الثورة — فيكشف عن ديناميات تنظيمية مختلفة أوجد الباحث قدرا من الارتباط بينها وبين الظروف البنائية للمجتمع والتنظيم نفسه . فالصراعات والتغيرات فى هذا التنظيم وكذلك علاقات السلام والتناغم بين جماعاته ليست ناتجة عن القسر والضبط كما فى التنظيم الأول ، وانما تنتج عن ظروف مجتمعية مغايرة : خضوع التنظيم لادارة مركزية ، واعتماده فى مصادره وتسويق انتاجه على مصادر خارجية الأمر الذى يجعله يتأثر بالضغوط الاقتصادية وعدم الاستقرار فى العلاقات الاقتصادية بين الدولة والقوى العالمية .

٢ — تخبر التنظيمات صراعات وتغيرات من نوع مختلف الى حد ما . ففى التنظيم الأول تلعب المصالح الطبقية دورا بالغا بسبب ظروفه التاريخية ايضا . ففى مجال الضبط هناك « الآمرون » و « المأمورون » وفى مجال

الاتصال هناك الذى « يعطى » والذى « يستقبل » وفى مجال الأهداف هناك أهداف متعارضة تعبر كل منها عن مصالح متعارضة . وفى التنظيم الثانى نجحت الادارة فى اخفاء الصراع بين الطبقات وجماعات المكانة المختلفة . ولكن ذلك لا يعنى أن المديرين قد حلوا التناقضات الداخلية بين الجماعات حلا كاملا نهائيا يطور ضرب من الصراع فى اثناء التحولات التكنولوجية وفى التكامل مع مثل هذه الصراعات فان المديرين يشعرون بمركز القوة اذا ما ربطوا بين ايديولوجيتهم والايديولوجية الرسمية للدولة .

٣ — رغم ما تؤدى اليه الديمقراطية من توازن فى بناء التنظيم ، الا أن الواقع المعاش فى كلا التنظيمين قد كشف بجلاء عن قصور الممارسات الديمقراطية عن تحقيق اهدافها . فبدلا من أن تعبر الممارسات الديمقراطية عن العمال وصغار الموظفين أصبحت واجهة تخفى وراءها سيطرة تكنولوجية مطلقة

٤ — تختلف مصادر التغير فى كلا التنظيمين ، ففى التنظيم القديم تعد الصراعات التى تنشأ بين الادارة وصغار الرؤساء من ناحية والعمال من ناحية أخرى هى المصدر الرئيسى للتغير الذى كان بطيئا ضيق النطاق ، أما مصدر التغير فى التنظيم الثانى فهو الظروف التكنولوجية المتغيرة والضغوط الاقتصادية والسياسية التى تعرضت لها الادارة الاقليمية .

٥ — أن العلاقة بين الأهداف التنظيمية العامة والأهداف التنظيمية الخاصة ، وكذلك العلاقات التى تعترض تحقيق الأهداف ترتبط بالظروف السياسية والاقتصادية والادارية والتكنولوجية السائدة فى التنظيمين .

هذه هى اهم النتائج التى توصلت اليها الدراسة وهى تعبر عن امكانية صدق الاطار النظرى الذى اتخذه الباحث فى دراسة التنظيمات . ويتضح من النتائج مدى اهمية هذا الاطار النظرى فى الكشف عن العلاقة بين البناء الاجتماعى والأيديولوجية السياسية وبين التنظيمات القائمة ، الأمر الذى يحتم

رفض النظريات الغربية المطلقة فى دراسة التنظيمات الخاصة فى المجتمعات النامية التى تختلف فيها ظروف هـــذه التنظيمات من حيث الملكية ونمط التكنولوجيا عن التنظيمات الغربية ، بذلك تكون الدراسة — الى جانب هذا الاسهام النظرى والمنهجى — قد قدمت اسهاما نقديا يتمثل فى عدم قدرة النظريات الغربية على فهم بناء الدول النامية . غير أن ذلك لاينفى بطبيعة الحال ان هذه الدراســة تكشف عن تأثر واضــح بالتراث النظرى الذى ناقشناه فى هذا الفصل ، يتضح فى محــاولة الدراسة الربط بين النظام والصراع فى آن .

خاتمـــة :

عرضت فى هذا الفصل لمحاولات الخروج من دائرة النظام العـــام فى علم الاجتماع . واذا كنا نعتبر أن هذه الاتجاهات اتجاهات نقدية مبكرة حاولت أن تفند النظريات التى تسعى الى تدعيم الاستقرار والتوازن فى المجتمع ، فان ذلك لا يعنى أنها اندفعت بعيدا عن نظريات التوازن هذه . غير ان ذلك لا يقلل من اهمية هذا الاتجاه كرؤية نقدية مبكرة ، فضلا عن اسهاماته المنهجية والامبيريقية التى اشرنا الى جانب منها . ترى الى اى وجهة اتجه علم الاجتماع بعد ذلك ؟ وماهى التغيرات التى طرات على بنائه النظرى من جراء هذا الالتزام بقضية النظام العام فى المجتمع ؟ لنتتبع القصة فى الباب الثانى من هذا الكتاب .